من وحى الإسراء والمعراج

محمد رسول الله

للدكتور عبد الحليم محمود
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

كنا فى جلسة هادئة وديعة ، فيها شىء من الاسترخاء والفتور ، وكنا نتحدث دون تحمس ، فى مسائل شتى وفجأة ، غمرنا جميعا نوع من الاهتمام الباسم ، ذلك أن أحدنا ألقى بفكرة كدنا نضحك عليها بملء أفواهنا ، ولكننا أكتفينا بالابتسام ، ذلك أننا نزل المتحدث منا منزلة الأستاذ فهو شخص قد تقدمت به السن ، واشتعل رأسه شيبا ، ثم هو قد تولى مناصب جامعية ، هى فى الذروة والسنام. كان الحديث قد اتجه نحو الدين . فقال صاحبنا : إننى أومن بالله ، لأنى أومن بمحمد ، ولو لم أكن أومن بمحمد لما آمنت بالله .

واستزدناه فقال . إن محمدا قد اكتسب ثقتى فآمنت به ، وألقيت إليه قيادى وآمنت بتعاليمه . ولما كان من تعاليمه الإيمان بالله فقد آمنت بالله .

وكنا نريد أن نستزيد أيضا ، وأن نناقش ، لولا أن أحدنا — وكان قد طوف ببعض البلاد العربية — بادر قائلا :

إننى منذ أن أدركت ، وطيلة إقامتى بمصر ، كنت أومن بمحمد ، صلى الله عليه وسلم إيمانا قويا ، ولكننى حينما تجولت فى البيئات العربية ، ورأيت العرب فى بداوتهم الغليظة الجافة ، التى لا تزال تشبه إلى حد كبير ، بداوة الجاهلية . . حينما رأيت هؤلاء القوم الذين نزل الرسول فى أمثالهم ، ازداد يقينى وإيمانى برسولنا الكريم ، وقدرت حق التقدير هدايته السامية ، التى ما كان يمكن بحال أن تنبع من هذه البيئة التى يسيطر الحس عليها وتسيطر المادة ، فى غلظة وفى جفاء ، وتستحكم فيها الشهوات سافرة حينا ، ومستخفية فى أغلب الأحايين .

وتشعب الحديث ، وعدنا من جديد إلى شيء من الفتور ، ثم افترقنا .

فأخذت منفردا ، أفكر فيما تحدثنا به ، ووجدتني أردد في نفسي جملة صاحبنا : « أن محمدا قد اكتسب ثقتي » . وذهب تفكيري إلى الرسول في حياته الأولى قبل بدء الرسالة ، ثم في بدء الرسالة ، فوجدت أنه لم يبتدىء بإلقاء العصا لتنقلب ثعبانا ، أو بإخراج يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، أو بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، كلا ، لم يكن شيء من ذلك ولو حدث ذلك لما كان من المستحيل أن يتشكك العرب ، وهم ألد الخصام ، فما أتى به ، والمعجزة المادية الحسية ، كانت ولا تزال موضع أخذ ورد وجدال ومناقشة ، ولقد شك فيها فرعون وهو يراها رأى العين ، وشك فيها أبو بكر الرازي ، وكتب كتابه المشهور : « مخاريق الأنبياء » ، أو حيل المتنبئين ، يتشكك فيه ، في معجزات سيدنا موسى ، ومعجزات سيدنا عيسى وينتهي إلى أن ماروى في ذلك إنما هو أساطير وأقاصيص لا تمت إلى الواقع بصلة ، والرازي وإن كان في رأيه هذا ضالا مضلا ، فإنه يرينا صورة من الصور الممكنة التي يقفها الناس أحيانا تجاه المعجزات .

على أن المعجزات إذا انفردت ولم تضف إليها الملابسات الكثيرة والظروف المتعددة الأخرى ، التي تتصل بالشخص وتعاليمه ، فإنه لا تثبت شيئا ولا تؤدي إلى يقين .

ويقول الإمام الغزالي : « فمن هذا الطريق : (طريق الملابسات والظروف) : أطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر فان ذلك إذا نظرت إليه وحده — ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر — ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » .

لم يلجأ سيدنا محمد ، في بدء أمره على الأقل ، إلى المعجزة ، ولم يتحد بالقرآن ، وإنما طرح مسألة الثقة به على « خديجة » بأن قص عليها ما حدث فصدقت وآمنت ، وهتفت في إخلاص وفي تحمس ، « أبشر يا ابن عمي واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل

الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وطرح رسول الله الثقة على ورقة ابن نوفل ، وكان متفقها فى الأديان دارسا لها ، خبيرا بها ، وقد تعلم ، وهو العربى الصميم ، اللغة العبرية ، ليزداد بالدين معرفة وفهما ، طرح رسول الله الثقة عليه — بأن قص عليه ماحدث فحسب — فأجاب ورقة ، فى غير ماتردد .

« والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصرا يعلمه » .

ثم بلغ التحمس بورقة أن أدنى رأسه من رسول الله ، فقبل يافوخه وطرح رسول الله الثقة على سيدنا أبو بكر ، وكان ذا خلق وفهم وتجارب ، أو كان ، كما يقول أصحاب السير (مألفا لقومه ، محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، وكان رجال قومه يألفونه ، لغير واحد من الأمر لعلمه ، وتجاربه ، وحسن مجالسته) .

طرح رسول الله عليه الثقة فلم يتردد ولم يتشكك وآمن ، وأذاع إيمانه بالله ورسوله بين أصحابه .

يقول ابن خلدون : إن من علامات الأنبياء : « دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة والصدقة ، والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه » .

... وعاد بى التفكير من جديد إلى صاحبنا وتساءلت : أكان مخطئا خطأ صريحا حين قال : ان ثقته بمحمد هى التى أدته إلى الإيمان بالله . لقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أهلا للثقة التى لأحد لها ، ولكن ماهى العوامل التى أدت ولا تزال تؤدى إلى هذه الثقة العظمى ؟

صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصفا يوما ، ونادى :

« يامعشر قريش » فقالت قريش « محمد على الصفا يهتف » وأقبلوا عليه يسألونه عما يريد ، فقال فى منطق سهل وفى بساطة تامة :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونى ؟ »

قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم ، فما جربنا عليك كذبا قط » .

قال :

« فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ... »

لم يلجأ سيدنا محمد فى بدء أمره إلى معجزة تفجأ وتدهش ، وإنما لجأ إلى ثقته بنفسه وإلى ثقة قريش به .

أما عوامل هذه الثقة فهى متوفرة سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، ولقد ذكرت السيدة خديجة بعضها فيما ذكرناه سابقا .

وتحدث عن بعض هذه العوامل ابن خلدون ، فى سهولة ويسر ، وتحدث عن بعضها فى صورة جميلة ، الحديث الذى جرى بين هرقل وأبى سفيان ، والذى رواه الإمام البخارى فى بدء كتابه الصحيح النفيس ، ومهما شك بعض الناس فى هذا الحديث فإنه حق كله ، وهو يعطى صورة صحيحة لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونحن نذكر هنا عن هذه المصادر بعض العوامل :

١ — لقد كان من هذه العوامل : وجود خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا — كما يرى ابن خلدون — هو معنى العصمة .

كان رسول الله ، كأنه مفطور على التنزه عن المذمومات وعلى المنافرة لها وكأنها منافية لطبيعته ، وفى الصحيح « أنه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزاره ، فانكشف ، فسقط مغشيا عليه ، حتى استتر » .

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم ، إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضر شيئا من شأنهم » .

لقد نزهه الله عن ذلك كله ، حتى أنه بفطرته يتنزه عن المعلومات المستكرهة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم لايقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى أناجى من لا تناجون .

٢ — ولقد قالت السيدة خديجة لرسول الله : « إنك لتصدق الحديث »

ونفت قريش صفة الكذب عنه صلى الله عليه وسلم ، ونفاها أبوسفيان فى حديثه مع هرقل ، فقال هرقل فى بداية بديهية : « لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ! ! »

٣ — وكان رسول الله يدعو إلى الخير ، ولقد كانت دعوته هى الخير كله .

يقول هرقل لأبى سفيان : «وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف فإن كان ما تقوله حقا فهو نبى» يقول ابن خلدون :

«والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو العصمة ، فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة ، دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل على أن ذلك : من علامات النبوة .

٤ — وكان رسول الله ذا نسب فى قومه وكذلك الرسل : تبعث فى ذروة الشرف من أنساب قومها .

٥ — ولم يكن رسول الله متابعا ، أو متأسيا بقول قيل قبله .

٦ — ولم يكن من آبائه من تملك حتى يقال : إنه يطلب ملك أبيه .

٧ — وكان أتباعه يتعلقون به حينما يتصلون به عن قرب ، ويفتدونه بأموالهم وأرواحهم .

٨ — ومما له مغزاه أنه لم يتراجع فى موقعة حربية قط . يقول الإمام على — وهو من هو شجاعة وإقداما —

«كنا إذا حمى الوطيس نحتمى برسول الله ، حتى يصير أقربنا إلى العدو»

هذه الملابسات والظروف مجردة عن المعجزة ، تؤدى لا محالة إلى اليقين بصدق الرسول ، وأنه كان ما ذكرناه منها إنما هو قليل من كثير .

ولعله يتبين الآن صحة رأى الإمام الغزالى ، فى أن دراسة حياة الشخص وتعاليمه تحتل مكانا أهم من مكان المعجزة فى إثبات الرسالة .

ومع ذلك فقد كان لرسولنا ، صلى الله عليه وسلم المعجزة الكبرى «القرآن الكريم»

«يتبع»